المشرق

رجل الخير المرحوم بشاره الخوري

نبذة للاب لويس شيخو اليسوعي

قال بعض مشاهير الكتبة: « قد اتّسمت النصرانيّة في كل عصر بسمة خاصّة نالتها من العزّ بردًا قشيباً رفع قدرها في اعين الشعوب. وسِمتُها الممـيّزة لها في القرن التاسع عشر انّما كانت محبّة القريب لاسيما ذوي البأساء منهُ مع بذل الذات في سبيل المشروعات الخيريّة ». قال هذا واَيّد قولهُ بشواهد عديدة قصرها على اسماء كبار المحسنين في اوربّة واميركة ممن شرّفوا زمانهم وبلادهم بسخاء ذات يدهم

(قلنا) ان ما قرّرهُ هذا الكاتب عن اهل الخير في الاصقاع الاجنبيّة لم يحرمنا الله منظرهُ في اقطارنا الشرقيّة. فانّ اصحاب الفضل والكرم توفّر بيننا عدادهم فصاروا جمًّا غفيرًا بعد ان كانوا رهطًا قليلين لا يتجاوزون عدد الاناملِ. على انّهُ قد امتـاز بين هؤلاء المحسنين رجلٌ طالما أُشير اليهِ بالبنان. ولم يختلف الى يومنا في سبقهِ اثنان. نشير الى فقيد الدين والدنيا ومثال الخير والتقوى المرحوم بشاره الخوري الذي صدق فيـهِ قول الشاعر :

لولا عجائبُ صُنع الله ما نبتتْ تلك الفضائل في لحمٍ ولا عصبِ

وها قد مرَّ نحو سنتين مـذ استأثرت بشخصهِ الكريم رحمة الله ولا يزال ذكرهُ مرسوماً على صفحات القلوب تترطّب ألسنة الجميع بالثناء على مكارمهِ

ما عاش من عاش مذموماً خصائلهُ ولم يمت من يكن بالخير مذكورَا

بيد انّنا سرّحنا الطرف في الجرائد التي اتت بذكرهِ عند وفاتهِ فلم نجد فيها ما وفّاهُ حقهُ من الثناء فاحببنـا ان نثبت في مجلّتنا ما امكن جمعهُ من اخباره ليجد

قرَّاؤنا في هذا النبذة الموجزة تذكارًا لاعمالهِ الخطيرة ومثـالًا يأتسون بهِ فيكتسبون سعادة الدارين كما قيل:

من يَصنع الخير لا يعدم جوائزهُ لا يذهبُ العرفُ بين الله والنَّاسِ

١

ترجمة الفقيد

وُلد المرحوم بشاره الخوري سنة ١٨٣٨ في مدينـة صور (لا في عكَّا كما زعم الهلال ٦ : ٦٢٦) من ابوين اشتهرا بالفضـل والتقى من طائفة الروم الكاثوليك الملكيين. واسم امّهِ صوفيًا ابنـة نيقولا منسًا. امَّا ابوهُ فكان يدعى ابراهيم مولدهُ عكَّا من ابٍ كاهن اسمهُ انطون عُرف بتقواهُ وغيرتهِ في خدمة النفوس وأُقيم راعياً على كنيسة عكَّا في ايَّام احمد باشا الجزَّار اذ لم يكن وقتئذٍ فيها للروم الكاثوليك اسقف يهتمّ بشؤونها الروحيَّة. وكان الخوري انطون رخيم الصوت حسن الغنـاء فنما خبرهُ الى الجزَّار فاحبَّ ان يسمع صوتهُ فما أصغى اليهِ حتى أُعجب بهِ وجعلهُ من اصحـابهِ. ونال الخوري الغيور بهذه الوسيلة نعمًا جزيلة افاد بها ابناء طائفتهِ. ولمَّا قدم نابوليون بونابرت الى محاصرة عكَّا سنة ١٧٩٩ كان الخوري انطون ممَّن اجتمعوا بهذا القائد العظيم فاكرمهُ نابوليون وتحفَّى بهِ. ونشأ ابنهُ ابراهيم على صفات والدهِ ولا غرو فانَّ

الابنَ ينشا على ما كان والدهُ انَّ العروقَ عليها ينبت الشجرُ

وممَّا امتاز بهِ ابراهيم رسوخهُ في الدين فكانت عيشتهُ اشبه بعيشة النسَّاك وقد بلغ بهِ تعبُّدهُ الى ان كان يتلو كلَّ يوم فروض الرهبان القانونيَّة في اوقاتهـا المعيَّنة ويقضي نصف ساعة في التأمُّلات الروحيَّة ويثابر على الاسرار الطاهرة. ولمَّا بارك الله اقترانهُ بصوفيًا السابق ذكرها رُزق عـدَّة اولاد سعى في تربيتهم في خشية الله وارشادهم الى طريق الصلاح. ومن عاداتهِ الحميدة انهُ كان يجمعهم صباح مساء لتلاوة الصلاة مع لفيف العائلة وكان يتوجَّه معهم كلَّ يوم الى الكنيسة لحضور الذبيحة المقدَّسة

وكان ابراهيم انتقل من عكَّا بعـد وفاة والدهِ لكثرة ما وقع في هذه المدينة من الفتن والحروب فتوطَّن صور وفيها اولد ابنهُ بشاره كما مرَّ. وفي سنة ١٨٤٣ خرج ابوهُ من صور وقدم صيداء مع عائلة عديلهِ المرحوم ايوب العكَّاويّ والد حضرة الاب الفاضل الغيور انطون عكَّاوي العازاريّ. لكنَّهم لم يجـدوا في هذه المدينة ما بنوا عليهِ آمالهم

رجل الخير المرحوم بشاره الخوري

رئيس شركة مار منصور دي پول في بيروت

واضطروا الى ان يبارحوهـا فيسافروا الى القطر المصريّ سنة ١٨٤٥ فاقاموا اوّلًا في دمياط خمس سنوات ثم شخص ابراهيم الى الاسكندريّة وسكنها مع اولادهِ الى وفاتهِ سنة ١٨٥٢. وكان موتهُ فجأةً الّا انهُ كان مستعدًا منذ أمدٍ مديد للاقاة ربّهِ بعيشته الصالحة وسيرتهِ التقويّة. ولمّا كان بشاره مطبوعًا على الحب الصادق البنوي نحو والدهِ اصابهُ من جرّاء وفاتهِ ألم شديد لاسيما اذ رأى ان اعباء ادارة البيت مع الاهتمام بشؤون اخوتهِ الصغار قد عادت اليهِ وهو وقتئذٍ في ريعة الشباب لم يبلغ من السنّ فوق الاربع عشرة سنة. لكنّهُ القى بمقاليد امرهِ على الربّ الذي لا يهمل من اتّقاهُ ووضع عليهِ اتّكالهُ

وكان بشاره ذا فهم متوقد وذكاء غريزيّ تلوح على وجههِ ملامح النجابة فأدّى بهِ ذلك الى ان اتقن بوقت قليـل مبادئ اللغة العربيّة. ولمّا دخل ابوهُ الاسكندريّة سلّمهُ لحضرات الاباء الغازاريين ثم لاخوة المدارس المسيحيّة ليتخرّج عندهم بآداب اللغة الفرنسيّة. وقد شهد لهُ استاذهُ الغازاريّ الاخ كلاري بانهُ كان قدوة لكلّ اقرانهِ بتقواهُ وسلوكهِ الحسن واجتهادهِ في تحصيل العلوم. ثمّ تفرّغ في بيت ابيهِ لبعض دروس خصوصيّة على استاذٍ احضرهُ لهُ والدهُ. وممّا حصل عليـهِ بالممارسة دون معلّم يرشدهُ مبادئُ اللغتين الانكليزيّة والايطاليّة حفظ منهما ما كفاهُ لمزاولة اشغالهِ واستعان بهما في اسفارهِ الى انكلترة وايطاليّة

ثمّ مات والدهُ كما سبق فاضطرّ بشاره الى معاناة الامور التجاريّة. ودخل في اوّل الامر بصفة كاتب في مصرف (بنك) الكونت ميخائيـل دي دبّانة احد تجار الاسكندريّة المعتبرين. ثم خدم في فرع المحلّ الذي انشأهُ في الاسكندريّة هنري مارس الروسيّ المثري الشهير فسرّ بهِ اصحاب المحـلّ وقدّروا نشاطهُ وقدّموهُ بين عمّالهم. وفي سنة ١٨٥٧ اخذ المحلّ المذكور بالتصفية وقدّم مديرهُ استعفاءهُ فلم يجـد هنري مارس رجلًا اجدر بان يقوم بادارة الاشغال من بشاره الخوري وهو اذ ذاك في مقتبـل الشباب فعهد اليهِ بالامر لما كان يعرف من نزاهتهِ وغيرتهِ على مصالح اربابهِ

بيد انهُ لم يلبث قليلًا ان رأى في يدهِ رأس مالٍ كافٍ ليتعاطى التجـارة على حسابهِ الخاصّ فتح لهُ محلًّا واخذ يخابر التجار ويجدّ في معاملتهم بغاية ما امكنهُ من اللطف والاستقامة. قال رحمـهُ الله: « لمّا رأى الناس انني صادق اللهجة حسن الطويّة

ثابت الكلام لا انكث عهداً ولا أفرُ في خدمتهم جهداً اخذوا يتواردون عليَّ زرافاتٍ وتوفرت اشغالي. وكنتُ علاوةً على ذلك لا اطلب الارباح الفاحشة التي لا يُحصل عليها الّا بالمخاطرة برأس المال وارضى بما يسوقهُ الله اليَّ من الرزق القريب فصدق فيَّ قول القائل:

وجدتُ القناعة اصل الغنى فصرتُ باذيالها ممتسكْ

فما عثّمت الدنيا ان جاءتني صاغرةً فاخذتُ منها ما اهدتني وماء وجهي موفور ودِيني مصون »

ومما ساعدهُ على المكاسب الطائلة معاهدات عقدها مع الحكومة المصرية ثمّ مع الحكومة الانكليزيّة باثناء حرب السودان وكان اخذ على نفسهِ ان يقدّم للحكومتين ما تحتاج اليهِ جيوشهما من اللوازم فقام بهذه المهمّات احسن قيام وآنس القوّادُ منهُ رجلًا شريف النفس سامي الهمّة لا يشترط على نفسهِ شرطاً الّا قام باكثر مما وعد. وقد عرفت لهُ الحكومة الانكليزيّة هذه الخدمات الجليلة واثبتت في سجلّاتها تذكاراً حسناً ينطق بشهامة المرحوم وشرف اخلاقهِ

ولمّا جرت في مصر الحركة العرابيّة في سنة ١٨٨٢ ذكرت الحكومة الانكليزيّة عميلَها وما وجدت فيهِ من سلامة الطويّة وسموّ المدارك فارسلت وخابرتهُ في بيروت لتعرض عليهِ ثانيةً عقداً جديداً في تهيئة المؤن والذخائر لجيشها فابى الاجابة الى سؤلها خوفاً منهُ ألّا يسمح لهُ الوقت باتمام هذه المهمّة فيرتبك بشغل شاغل دون ان ينهض باعبائهِ حقّ النهوض. وكان مع ذلك يأمل من هذه المعاملة ربحاً وافراً فآثر خسارتها على المخاطرة بعرضهِ وذمّتهِ. ولعلّ الله جازاهُ عن تزاهتهِ هذه عاجلًا لمّا التهمت النار في آخر الثورة العرابيّة حيّ الاسكندريّة الذي فيهِ كانت مخازنهُ فذهبت كلُّ الابنية المجاورة لهُ ولم تصب النار مخازنهُ باذًى فعدَّ الناس ذلك نعمةً خصوصيّة

ومن خصائلهِ الطيّبة ايضاً التي اعانتهُ على جمع الثروة انهُ كان يُحسن النظام في كلّ اشغالهِ ويضبط دفاترهُ ضبطاً مدققاً فلا يؤخر الى الغد ما يمكنهُ انجازهُ في نهارهِ. وكان يطلب من عمّالهِ الطاعة التامّة في اتمام اوامرهِ حتى في الامور الطفيفة. فاكتسب بذلك ثقة الجميع وصارت كلمة واحدة من فيهِ تُعتبر اكثر من الصكوك والحجج المسجّلة

ومما رفع شأنهُ وزاد في علوّ مقامهِ انهُ رحل مراراً الى الاصقاع الاوربيّة وداوم

فيها الاسفار من سنة ١٨٥٩ الى سنة ١٨٦٤ وتعرَّف بكثيرين من اصحاب المحلات الكبرى فابرم معهم معاهدات تجاريَّة اكسبتهم واياهُ مكاسب بالغة وقد رأوا في اعمالهِ من الدراية وحسن التدبير ومَحض الامانة ما زادهم رغبةً في معاملتهِ وقد ثبتوا معهُ بتبادل الاشغال الى آخر حياتهِ

وبعد رجوعهِ من اوربَّة الى القطر المصري اقترن سنة ١٨٦٥ بماري كريمة الفاضل التقيّ يوسف دبانة قنصل نابولي المُقيم في ذلك الوقت في مدينة صيداء(١. فكان هذا القران حليف اليمن والدعة مصحوبًا بالرفإ والبنين. ومن جملة اولادهِ هؤلاء بكرهُ الفاضل الخواجا ابراهيم والمرحوم اميل الذي اهتصرت المنون غصن شبابهِ رطبًا سنة ١٨٩٥

ولمَّا دخلت سنة ١٨٧٢ رأى انَّ في اقامتهِ في القطر المصري مخاطر عديدة تداهم التجَّار عمومًا فتعرّضهم الى الخسائر الجسيمة وترنّق صفاء عيشهم بهموم متواصلة. فترك القطر المصريّ وجاء بيروت فتوطنها وزاول فيها اعمال الصرافة موثرًا الربح القليل على التهور في المتاجرات الخطرة رغمًا عمَّا كان عليهِ من الحنكة التي كانت تمكّنهُ من جمع ثروة عظيمة. فما لبث ان صار محلُّهُ معدودًا بين المصارف الاولى لدربة صاحبهِ في الامور واستقامتهِ في المعاملات. وكانت المصارف الاوربيَّة تعتمد عليهِ اعتمادها على المحلات العامرة التي لا تزعزعها عواصف الدهر وصروفهُ. وقد اقرَّ بذلك علانيةً سنة ١٨٩٥ زعيم تجار مرسيلية في نادٍ اجتمع فيهِ اكبر مديري المصارف حفاوةً بصاحب الترجمة يوم مرَّ في هذه المدينة فاستقبلهُ بقولهِ: « اننا نرحّب بزميلنا الخواجا بشاره الخوري ونصدّرهُ في مجلسنا اقرارًا بفضلهِ لانهُ حقيقةً مرآة الشرف والاستقامة في الاقطار السوريَّة بل قدوة الفضل والكمال لكلّ اصقاع المعمور

وفي مدَّة تجوُّلهِ في اوربَّة ابتلاهُ الله كما يبتلي عبيدهُ الابرار بوفاة قرينتهِ العزيزة فتوفَّاها الله في ٢٤ أيار سنة ١٨٨٠ تاركةً لهُ ولدين واربع بنات. فلمَّا علم بهذا المصاب العظيم قبَّل اليد التي ضربتهُ وخضع تمامًا لاحكامهِ تعالى. وفي منتصف حزيران من السنة ١٨٨١ تزوَّج بملكة كريمة صاحب الفضل والتُّقى حبيب عبد الله الموصلي. وواصل اشغالهُ بثباتهِ وهمَّتهِ المألوفة الى سنة وفاتهِ

ولمَّا كانت غاية تشرين الثاني من سنة ١٨٩٠ انتخبهُ اعضاء جمعيَّة مار منصور

١) وأمُّها آسين بنت المرحوم يوسف خلاط

دي بول رئيساً عامّاً ليخلف في هذه الوظيفة رجل البرّ والتُّقى بطرس ديشان. فلبّى الى دعاء الاعضاء بكل طيب قلب. وهذه هي الرتبة الوحيدة التي احبّ مباشرتها في حياتهِ لما كانت تقتضيهِ منهُ من بذل الذات ومواصلة الحسنات نحو المكروبين. فادار هذه الجمعيَّة بنشاط لا يوصف وامدَّها بحسنات لا يعرفها الّا الله. هذا فضلاً عمَّا تبرّع عليها من المال الوافر منذ انضوائهِ الى هذه الشركة في ١٤ تموز سنة ١٨٧٣ وأيَّام نيابتهِ لرئيسها العام سنة ١٨٧٧. وكان ايضاً رئيساً للجمعيَّة الخيريَّة للروم الكاثوليك

وفي آخر عمرهِ اصابتهُ اوجاع وبلايا عظيمة لاسيما وفاة نجليهِ العزيزين اميل وهنري فتوالى عليهِ الرزء مرَّة بعد أُخرى فتضعضعت قواهُ وتعاظمت عليهِ اعراض الامراض فكنت تراهُ كالذهب الابريز يمحصهُ الله بنار المحن ليزيد نفسهُ بهاء ويجزل ثوابهُ في دار البقاء. وكانت الكهنة من اصحابهِ يتردَّدون عليهِ فيعودونهُ في علَّتهِ ويثبتون عزمهُ على احتمال الصليب بصبرٍ مسيحيّ فكان يأنس بخطابهم ويشكر لهم فضلهم ويريهم من ايمانهِ عجائب. ولمَّا شعر نسيبهُ الغيور الفاضل الاب انطون عكّاوي بقرب حلول اجلهِ استدعى لهُ كاهن الرعيَّة الاب بناديكتوس الذي كان يلازمهُ في مرضهِ فزوَّدهُ بكلّ اسرار الكنيسة وقلبهُ مفعم سروراً لملاقاة الاله الذي اخلص خدمتهُ مدَّة حياتهِ بلا انقطاع ولا فتور. وكانت الشركات الخيريَّة والجمعيَّات الرهبانيَّة وكلّ اصحاب الخير يقيمون اذ ذاك الصلاة الحارَّة لبقاء هذا الرجل الصالح. غير انَّ الربّ وجدهُ كثمرة يانعة آن وقت قطفها لينقلها الى جنَّة الخلد. فكانت وفاة المرحوم في ٢٨ آذار سنة ١٨٩٨

فما طار منعاهُ في انحاء البلدة حتى عمَّ الحزن والاسف قلوب جميع معارفهِ واصدقائهِ والحق يقال انَّهُ لم يكن لهذا الرجل البارّ غير اصدقاء واصحاب لما كان مفطوراً عليهِ من الخلال الفريدة التي قيَّدت لهُ القلوب بإسار الحبّ والاعتبار. وقد ظهر ذلك في حفلة جنازتهِ اذ تبع نعشهُ زهاء عشرين الف نسمة يتقدَّمهم فرقة من الضابطة ويستجيَّة الدول وطلَبة مدارس جمعيَّة مار منصور دي بول ومكتب الروم الكاثوليك ومأوى اليتامى وكلُّهم يحملون الشموع والمشاعل وينشدون الاناشيد الشجيَّة وعلى وجوههم امارات الحزن. وحضر هذا المأتم عدد غفير من اكليروس جميع الطوائف ورؤساء الرهبانيَّات واعيان البلدة ووجوهها واعضاء كلّ الجمعيَّات الخيريَّة

وكان من ينظر هذا المشهد الاثير يخال لهُ انَّ بيروت كلها اجتمعت لتشيّع المرحوم الى دارهِ الاخيرة اسيفةً على فقد من كان غياثًا للفقراء وثمالًا للايتام والارامل وسندًا لكلّ الاعمال المبرورة وفخرًا لآلهِ الكرام وطائفتهِ الجليلة ووطنهِ العزيز وللنصرانيَّة باجمعها. وصلّى عليهِ تسعة مطارنة في مقدّمتهم سيادة الحبر الجليل كرلوس دوڤال القاصد الرسولي وصاحب الغبطة السيد المفضال البطريرك بطرس الجريجيري الذي أبّنهُ في الكنيسة بخطاب انيق استنزف بهِ دموع الحضور مدرارةً واضرم في القلوب لوعةً على الفقيد لم يُخمد لظاها حتى الآن. وممَّن أبّنهُ على شفا تربتهِ حضرة القيكونت فيليب دي طرّازي الذي خلفهُ في رئاسة جمعيَّة القديس منصور وغيرهُ من الافاضل

وقد اشتركت حكومتنا السنيَّة بهذا الخطب الجلل فاظهرت ما تكنُّهُ صدور اهل الدولة من الاعتبار السامي لشخص الفقيد فانَّ صاحب الدولة نعوم باشا متصرّف جبل لبنان نزل من مركزهِ في بعبدا الى بيروت لحضور المأتم وتعزية أُسرة المرحوم. وارسلت قناصل الدول العظمى وفدًا من ارباب المناصب ليمثّلوها في هذه الحفلة. كما ان دولتلو والي ولاية سوريَّة ناظم باشا بعث من يقدّم لعائلة الفقيد واجبات التعزية. وكنتَ ترى اكلّة الزهور متزاحمة فوق النعش منضّدةً على احسن هيئة. واشترك بمظاهر الحزن على الفقيد الروم الارثدكس والبروتستنت فكانت اجراسهم تقرع عند مسير المأتم. وفي الاجمال يصحُّ القول انَّ هذا المأتم لم ترَ لهُ بيروت مثيلًا من ذي قبل ولعلَّها لن ترى امدٍ الى بعيد

٢

٢ فضائل الفقيد

انَّنا في قسمنا السابق لم نذكر الَّا النزر القليل من حميد سجايا المرحوم بشاره الخوري. وقد لجّلنا الى هذا القسم اشياء كثيرة تنبئ على سموّ فضلهِ وأغلب هذه الاعمال لم تنظرها اعين الناس وهي لذلك اجدر بان تسطَّر في بطون الصفحات وذكرها اوقع في النفوس من المآثر الظاهرة التي يستعظمها الجمهور عادةً

واوّل ما يحسن بنا ذكرهُ في هذا الباب ايمان الفقيد وتُقاهُ فانهُ رحمهُ الله كان قد تشرَّب روح الدين منذ نعومة اظفارهِ حتى صار فيهِ كغريزةٍ راسخة في سويداء قلبهِ. ولذلك لم يكتفِ بتتميم كلّ فرائضهِ الدينيَّة كما هو شأن المسيحيّ الصادق الايمان بل

كان يفرض على نفسهِ صلوات عديدة ينجزها بما امكنهُ من النشاط والغيرة. وكان على مثال والدهِ يصلّي الفرض الرهباني القانوني بتمامهِ ويتلو مع عائلتهِ واولادهِ صلاة الصبح والمساء. ويثابر على حضور القداس الالهيّ كلّ يوم بل كان يشارك كهنة طائفتهِ في صلواتهم الجهاريّة كالخدمة وتلاوة الرسائل دون حياء بشري. وكان اذا صدَّهُ المرض عن الذهاب الى الكنيسة يستدعي باذن الرؤساء كاهناً يقيم الذبيحة الطاهرة في بيتهِ. وكان محافظاً باشدّ الحرص على القطاعات والصيامات الكنسيَّة اللهمَّ الّا في وقت المرض وبرخصة مرشد ضميرهِ. وقد بلغت بهِ وصيَّة حفظ الآحاد والاعياد الى ان يمتنع في تلك الأيام عن فضّ تحاريرِ البريد ويقضي اذ ذاك صلب نهارهِ في مناجاة الله وقراءة الكتب الروحيَّة والتفرُّغ لجميع الاعمال المبرورة

وكان قلبهُ كلفاً بسرّ القربان الاقدس فيتقرَّب من المائدة السموية في السبوت والاعياد بايمان حيّ وورع عجيب. وكان كلّ يوم مساء يزور القربان لا سيَّما في كنيسة المصيطبة فصار بذلك قدوةً لاهلهِ وبعض اصحابهِ الذين اخذوا عنهُ هذه العادة الحميدة ولا يزالون يداومون عليها. وقد حملهُ حبُّهُ لسرّ هيا كلنا ان يشترك باخويَّة قلب يسوع الاقدس ويبثُّ بين اهلهِ وخدَّامهِ ومعارفهِ التعبُّد لقلب ابن الله ويقيم في بيتهِ رتبة شهر حزيران المخصَّص لاكرامهِ

امَّا محبَّتهُ لوالدة الله فكانت اشبه بحبّ الابن نحو والدتهِ لا يدع يوماً يجتاز عليهِ دون ان يحيّيها ببعض الصلوات ويبدي لها الاكرام البنويّ. وكان مشتركاً بثوب سيدة الكرمل ويتقرَّب الى الاسرار المقدَّسة في اعياد البتول الطاهرة وسبوتها

ومن الشواهد العديدة الدالَّة على تديُّنهِ أنهُ كان يختلي كلّ سنة في بعض الاديرة أياماً معلومة يصرفها في الرياضات الروحيَّة بارشاد بعض الكهنة الافاضل وكان اذ ذاك يحفظ السكوت التام في بيتهِ مع ذويهِ وقد شاهدناهُ مراراً في كليَّتنا يتفرَّغ لهذه الرياضات فيعيش بيننا عيشة الرهبان وكان حضرة الاب ميشال جوليان يتولى ارشادهُ وهو معلّم ضميرهِ وعنهُ اخذنا بعض هذه الافادات التي دوَّناها في نبذتنا. وكان عند ما يقضي فصل القيظ في مصيفهِ بمكين يحبّ الاختلاء في دير الشير للرهبان الروم الكاثوليك الحلبيين. ولمَّا كان الصوم الكبير من سنة وفاتهِ استدعاهُ رئيس كليَّتنا الى رياضة أُقيمت لبعض اعيان البلدة في جنينة المدرسة فلبَّى دعاءهُ ولكن حال المرضُ الاخير دون

اقام بغيتهِ وارسل كأساً من الفضّة للمعبد الذي يحتشد فيهِ المتروّضون

ومن شعائرِ الدينيّة محبّتهُ لكنيسة الله وائمة احبارها وانتشار الدين المسيحيّ. وقد ساقهُ عظم تعلّقهِ بالسدّة البطرسيّة الى ان يقصد رومة العظمى مرّتين ليحظى بالمثول امام الاحبار الرومانيين فباركهُ السعيد الذكر البابا بيوس التاسع وقداسة الحبر الجليل لاون الثالث عشر المالك سعيدًا. ومن ذلك ايضاً المال الوافر الذي صرفهُ لبناء الكنائس. نخصُّ منها بالذكر كنيسة البشارة في المصيطبة وكنائس عديدة ساعد على تشييدها الاب يوسف برنيه اليسوعيّ في جهات حمص وعكّار جعل لهُ مبلغاً معلوماً لكلّ كنيسة يبتنيها في تلك النواحي. واليهِ يعود الفضل خصوصاً في تشييد كنيسة جميلة في قرية عاليه. وكان اتّخذ لهُ ديدنًا ان لا يجزل العطاء فقط على الكنائس بل يعدُّ ذلك نعمةً فيشكر فضل الذين يستلفتون انظارهُ الى مثل هذه الاعمال المبرورة التي تكسبهُ اجرًا عند الله

وكانت غيرتهُ على النفوس مضطرمة يسعى غاية جهدهِ في خلاصها. وكان اوّل همّهِ ان يطبع في قلوب اولادهِ حبّ الفضيلة ويصونهم عن كل ما من شأنهِ ان يدنس ضمائرهم ولو بالذنوب الخفيفة فيكرّر على مسامعهم قول الملكة بلنش دي كاستيل لابنها القديس لويس ملك فرنسة «انّهُ معجزةٍ لهم يؤثر ان يراهم اموات من ان يغيظوا الله بخطيئة واحدة». ولاجل غيرتهِ هذه على خلاص النفوس كان يبذل الدراهم عن يد سخيّة لانشاء المدارس وتثقيف الاحداث على المبادئ الدينيّة والآداب الحسنة

وكان المرحوم يحبّ طائفتهُ حبًّا عظيماً ويرتاح الى حضور طقوسها الجليلة ويفرغ الوسع في تقدّمها ونجاحها ويكرم رعاتها النبلاء بيد انّ ذلك ما كان لينسيهُ انهُ ابن كنيسة منتشرة في الخافقين. ومن ثمّ كنتَ تراهُ مجتهدًا في تعزيز الكثلكة عموماً يتردّد على رؤساء جميع الطوائف والرهبانيّات ويبدي لجميعهم الاكرام اللائق ويتوق الى رؤية الوفاق والاتّحاد بين الطوائف المتفرّقة. ولم يقبل رئاسة جمعيّة مار منصور الّا لما وجدهُ فيها من الحبّ العامّ الشامل لكلّ الطقوس الكاثوليكيّة. ولمّا عرف ان انطون ابن خالتهِ ايّوب العكّاوي يقصد التردّب في جمعيّة الآباء العازريين فعارضهُ كثيرون في تتميم قصدهِ اخذ المرحوم يدافع عنهُ وساعدهُ على تحقيق امانيهِ

ولا تنسى الرهبانيّة اليسوعيّة فضلهُ لما استفادهُ من الوسع مع بعض الادباء في

سنة ١٨٧٦ ليفتح لابناء القديس اغناطيوس رسالةً في القطر المصري وكتب في ذلك الى المجمع المقدَّس في رومة وارسل المعاريض الممضاة باسماء كثيرين من الافاضل فاجاب المجمع الرسولي الى سؤلهِ بعد قليل

ومن صفات الفقيد تواضعهُ العجيب فأنهُ كان يسيئ في نفسهِ الظنّ ويحبّ ان ينقاد الى مشورة غيرهِ حتى في الامور الصغيرة واكثر ما كان يظهر منهُ ذلك لدى مرشد ضميرهِ فانهُ كان امامهُ كطفل يعرض عليهِ بسذاجة خفايا قلبهِ ولا يأتي امرًا الّا بمشورتهِ

وكان تواضعهُ هـذا يزيد الناس اعتبارًا لشخصهِ الاثيل. فمن ذلك انَّ جلالة اللندغراف دي هاس (de Hesse) الالماني الشهير كان يجلُّهُ ويعظِّمهُ مذ تعرَّف بهِ في احدى سياحاتهِ الى الأقصُر (تيبة) ثمَّ مرَّ البرنس ببيروت بعد سنين فاوقف سفينتهُ ساعتين ليتمكَّن من زيارتهِ في بيتهِ وترك لهُ صورتهُ تذكارًا . ولمَّا قدم دون بدرو ملك البرازيل الى سوريَّة للتجوُّل فيها لم يرضَ رفيقًا غير صاحب الترجمة لما بلغهُ من دماثة اخلاقهِ ورقَّة طباعهِ وكان المرحوم وقتئذٍ نائبًا لقنصل البرازيل

ومن دلائل تواضعهِ العجيب انَّهُ كان يحب الاعتزال عن الرتب العاليـا والمناصب الجليلة والامتيازات الفاخرة. فمن ذلك ان السعيد الذكر البطريرك غريغوريوس الحَّ عليهِ من امدٍ مديد بان يقبل رتبة الكُنتيَّة الرومانية الخطيرة فأبى قبولها. وقد نال خفيةً عنهُ وسام القديس غريغوريوس الكبير من رتبة كافليار والوسامين العثماني الثالث والمجيدي الرابع. وكان اصدقاؤهُ يحضُّونهُ عـلى ان يرشّح نفسهُ ليكون عضوًا في ادارة الولاية ليمثِّل فيهِ طائفتهُ وبيَّن لهُ دولة والي بيروت ارتياحهُ الى اقتبـالهِ هذه المهنة لكنَّ الفقيد ابى ذلك مطلقًا خوفًا منهُ ألّا يحسن القيام باعباء مهنتهِ

وكان لشدَّة تواضعهِ يتجنَّب كل عمل يكسبهُ لدى الناس مجدًا باطلًا فكان يصنع المبرَّات متستِّرًا يودّ على موجب قول الرب الّا تعلم شمالهُ ما تعطي يمينهُ

بيد انَّ ما امتاز بهِ هذا الرجل العظيم انما هو كرمهُ وحسناتهُ الوافرة للفقراء والمحتاجين. فمن ذلك انَّهُ تصدَّق الى جمعية مار منصور بنحو مئة الف غرش وترك لها بموجب صك وصيَّتهِ اربعة آلاف فرنك. ولمَّا انشأت الشركة في سنة ١٨٧٧ مدرستين مجَّانيتين في حيّ رأس بيروت وحيّ الرُّميلة لتعليم الفقراء قام الفقيد باكثر نفقاتهما. ولمَّا حدثت الفتنـة العربيَّة سنة ١٨٨٢ ولجأ كثيرون من المصريين الى القطر السوريّ تبرَّع

وجمع للشركة من مالهِ ٢٠,٠٠٠ الف فرنك لمساعدة المهاجرين في ضنكهم وتمكينهم من العود الى بلدهم بعد خمود الفتنة. على ان جمعيَّة مار منصور لم تكن لتذهل عن معرفة الجميل فقد اقامت لراحة نفسهِ جنَّازين احدهما بعد وفاتهِ والآخر في تذكار موتهِ السنويّ

وكان يدفع سنويًا مبالغ وافرة لراهبات المحبَّة لتعليم الايتام واليتامى ويرسل اليهنَّ خفيةً طحينًا من الصنف الافضل وكان يقول: « انَّ للفقراء حقًّا ان يأكلوا من احسن جنس ». ومن اعمالهِ المشكورة انَّهُ كان شديد الاهتمام في تسهيل زواج البنات على اختلاف طوائفهنَّ من العائلات المتستِّرة اللواتي اخنى عليهنَّ الدهر فيدفع لهنَّ ما يحتَجْنَهُ لجهازهنَّ. ومن ذلك ايضًا انَّهُ افرز منذ سنة ١٨٨٤ عشرة آلاف ليرة يتصدَّق بريعها كلَّ سنة على الفقراء. ولم تخلُ مدينة من بلاد الشام من دلائل كرمهِ الحاتميّ فكان كلَّ سنة يرسل مبالغ الى الشام وزحلة وبيروت وصور وصيداء وعكَّا وحيفا ويافا منها صدقات للمحتاجين ومنها حسنة قداسات للكهنة. وكان خصَّص سنويًا مبالغ أخرى لفقراء الاسكندريَّة ومصر ولجمعيَّتي مار منصور دي بول في ليفربول ولندرة. وصدقات عديدة وافرة للجمعيَّات والرهبانيَّات في انكلترة وللكردينال رئيس اساقفة لندرة. وفي ١٨٩٥ بلَّغ الحكومة المصريَّة ١٨ الف فرنك لتنفقها في المستشفيات المصريَّة فارسل نوبار باشا يشكر لهُ هذه الهبة الحاتميَّة. هذا فضلًا عن ٥٠٠ ليرة أُخرى تبرَّع بها في القطر المصري ومبرَّات وافرة كان يحسن بها كلَّ يوم الى المحتاجين بقطع النظر عن طوائفهم لا يستثني احدًا من البائسين بل يَقتصد في معاشهِ ليزيد في مبرَّاتهِ

ومما يُخبر عنهُ انَّ بعض اهل الثروة اوعز اليهِ يومًا بان يحيي في بيتهِ ليلةً راقصة يدعو اليها وجوه البلدة. فسأل المرحوم: وكم يقتضي ذلك من المصروف؟ قال: نحو خمسة آلاف فرنك. فاستدعى الخواجا بشاره من ساعتهِ احد عملائهِ وتقدَّم اليهِ بان يفرز لهُ المبلغ المذكور ليوزِّعهُ في غد ذاك النهار على الفقراء فيدَّخر لهُ بذلك ثوابًا افضل من احياء الليالي الساهرة في المسرات والملاهي. وقد بلغت وصيَّتهُ للفقراء ٧٥٠٠ ليرة

ولا حاجة الى القول انَّ الفقيد لم يبخل بمالهِ لينفق في المشروعات المدنيَّة الآئلة للخير العمومي ونشر العلم. فانهُ كان اوَّل من يكتتب لانجاز هذه الاعمال النافعة. وفي متحف العاديَّات الذي في كليَّتنا شاهد على سخائهِ. وهو ناووس من الرصاص عليهِ نقوش وتصاوير جميلة يرتقي عهدهُ الى الفينيقيين وجدهُ سنة ١٨٨٧ عند حفر اساس احد بساتينهِ

فلمَّا اكتشفهُ جاد بهِ على مدرستنا الكليَّة جازاهُ الله خيرًا

وما كان المرحوم ليكتفي بدفع هذه المبالغ الجسيمة للفقراء والمساكين بل كان يحبُّ ان يزور بنفسهِ اكواخهم ويحمل اليهم بيدهِ المساعدات اللازمة وكان يعود المرضى ويعزّيهم بكلامهِ المتدفق رقَّةً ولطفًا

وقد اخبرنا صديقهُ الفاضل الخواجا نقولا قماطي (ومنهُ استفدنا تفاصيل كثيرة من هذه الترجمة) انهُ عاد واياهُ في ٣٠ تموز سنة ١٨٧٤ مريضًا في مكّين من اصحاب الثروة كان قلب لهُ الدهر المجنّ فاخذ المرحوم يطلب لهُ وسائل التعزية والسلوان وذكّرهُ بمثل طوبيًا البارّ وبقول الملاك لهُ انّ الله يبتلي اولياءهُ بالمحن ويختبرهم بالبلايا. ثمَّ ركب عجلةً تقلُّهُ مع قرينتهِ وجناب الراوي من مكّين الى عاليه فجمحت الخيل في طريقها بقرب وهدةٍ عميقة وانقلبت العجلة بالركّاب. فنجا المسيو نيقولا وقرينة المرحوم امَّا صاحب الترجمة والحوذي فسقطا في الهاوية ولم يشكّ احد في موتهما الّا انّهما سلما بنعمةٍ من الله باهرة. امَّا المرحوم فانسلخ جلد رأسهِ وانكسرت رجلهُ وترضّضت اعضاؤهُ لكنَّهُ اظهر من الثبات والجلد ما قضى بالعجب ونسي نفسهُ ليسأل عن امرأتهِ وصديقهِ. ولم يُسمع من فيهِ وقتئذٍ غير اسماء يسوع ومريم ويوسف والتسليم الى ارادتهِ تعالى وطلب الرحمة منهُ. ولمَّا عاد الى مكّين وهو على آخر رمق استدعى كاهنًا واعترف بخطاياهُ ثمَّ قال: «قد اتممنا الآن الامر الجوهريّ فلا بأس من العرض». وبقي زمنًا طويلًا طريح الفراش حتى شفاهُ الله تمامًا

على انَّ هذه المحنة لم تكن المصيبة الوحيدة التي اصابتهُ والاحرى ان يقال انَّ حياتهُ كانت كسلسلة من المصائب احدقت بهِ فاذاقتهُ العذاب ألوانًا فمن ذلك داء الحصاة الذي ابتُلي بهِ فاستلزم عمليَّات جراحيَّة مؤلمة جدًّا احتملها بصبر عجيب. ومن ذلك ايضًا فقد قرينتهِ واولادهِ وأحبابهِ كما مرَّ. ولم يجد في هذه الرزايا سلوانًا الّا في صبرهِ الجميل وفضيلتهِ السامية التي ظهرت في تلك الاثناء كالشمس في رابعة النهار. ولدينا مكاتيب افرنسية كتبها في اثناء هذه المصائب تنطق بصدق ايمانهِ وباعتصامهِ بحبل الله

هذه عجالة كتبناها في رجل البرّات المشهورة والحسنات المشكورة الذي متَّع الله بلادنا السوريَّة بفضائلهِ وخصائلهِ الفريدة فلعلَّها تكون كمثالٍ يقتدي بهِ الكبراء وسلوانٍ يبرّد لوعة آلهِ الفضلاء. وشاهد حيّ على قول الكتاب في سفر الامثال (١٩: ١٧): من يرحم الفقير يُقرض الرب فيجزيهِ بصنيعهِ